لقاء مع الدكتور نوري جعفر

د . نوري جعفر ـ استاذ التربية وعلم النفس في جامعة بغداد ، عالم نفسي له عدد من المؤلفات الرصينة ، منها : السلطة والفرد ـ مترجم عن الفيلسوف البريطاني برتراند رسل (١٩٥١) ، التربية وفلسفتها (١٩٥٢) ، جون ديوي ـ حياته وفلسفته (١٩٥٤) ، التاريخ ـ مجاله وفلسفته (١٩٥٥) ، العلوم الطبيعية واثرها في سير المدنية الحديثة (١٩٥٥) ـ نال الكتاب جائزة المجمع العلمي العراقي ، فلسفة التربية (١٩٥٩) ، ملاحظات على تخطيط التعليم في العراق (١٩٦١) ، طبيعة الانسان في ضوء فسلجة بافلوف (١٩٧١) ، اللغة والفكر (١٩٧٢) ، الفكر ـ طبيعته وتطوره (١٩٧٧) ، الاصالة في شعر ابي الطيب المتنبي (١٩٧٦) وصدر للدكتور نوري جعفر باللغة الانكليزية كتابه :. Creativity and Brain Mechanisms

كما ان له ثلاثة كتب اخرى معدة للنشر ، وعدداً كبيراً من الابحاث نشرها في المجلات العربية .

« وقد اختارت رئاسة المجلس الدولي للموهوبين في اميركا د . نوري جعفر من بين خمسة من العلماء النفسانيين في العالم لالقاء محاضرات تربوية ونفسانية هناك عن : القدرة العقلية الفذة في مادة الرياضيات ، وانطباعات عن الفيلسوف جون ديوي .. ـ راجع نص الخبر في مجلة (الفيصل) ع ٩٣/ ك ١ ـ ١٩٨٤ ص ١٦ ـ . وفي بغداد التقينا د . نوري جعفر وحاورناه ، وذلك بعد عودته من اميركا ومساهمته بالقاء محاضرة عن

« طبيعة القدرات العقلية الفذة او النادرة من وجهة نظر علوم الدماغ » .. ، وكان هو المحاضر العربي الوحيد الذي ساهم في المؤتمر الدولي للموهوبين المنعقد في مدينة سانت لويس الاميركية للفترة من ٦ ـ ١٩٨٤/١١/١٠ .

● حاوره : حسب الله يحيى ●

● الثقافة والفكر بشكل عام .. علاقة انسانية متطورة ، فكيف يمكن ان يسهم الفكر في اغناء الوضع البشري ؟ وكيف تواجه الثقافة عصر التكنولوجيا ؟

ـ شهد القرن الذي نعيش فيه تقدماً علمياً وتكنولوجياً مذهلاً ، فاق ما حصل في تاريخ الانسان منذ نشوئه على سطح البسيطة قبل اكثر من خمسة ملايين سنة ،

على ما يقول اصحاب الاختصاص ، وقد عبر هذا التقدم العلمي النظري والتكنولوجي عن نفسه في النظريات الجديدة الشائعة في الرياضيات وعلم الفلك والفيزياء والكيمياء وعلم الاحياء بالدرجة الاولى .. كما عبر ايضا عن نفسه في الحاسبات الالكترونية والسفن الفضائية وفي هذا السيل المنهمر من الاجهزة العلمية المتطورة والمستخدمة في مجال الطب والمواصلات ، وفي الصناعة والزراعة والتعليم وفي اسلحة الدمار الجماعي النووي والكيميائية والبكتريولوجية .

● الم يساهم هذا التفوق العلمي في تغيير البنية الاجتماعية ؟

ـ بالتأكيد .. كل ذلك ادى ـ من بين امور اخرى ـ الى زعزعة البنية الاجتماعية السائدة والعلاقات الاجتماعية المألوفة بين الناس المنحدرة من الماضي البعيد ، وبخاصة في المجتمعات النامية ، التي تسعى نحو نقل العلم النظري والتطبيقي نقلاً ميكانيكياً لاستخدامه باقصى حيز من السرعة لتطور اوضاعها المتردية بالمقاييس الحضارية الراهنة ، يضاف الى ذلك ولا يقل اثراً عنه ، ان هذه المجتمعات المتخلفة اخذت تتشبث بكل ما هو سلبي في الحضارة الغربية المعاصرة مع احتفاظها في الوقت نفسه ، بما هو سلبي ايضاً في تقاليدها الاجتماعية ، والاعجب ـ والحالة هذه ـ ان تكون حصيلة ذلك كله تفكك الروابط الاجتماعية السائدة وبخاصة الاسرة وفي مجال تربية الاطفال .. ورحم الله من قال : وما اجتمع الداءآن إلا ليقتلا .

● الا تعتقدون ان ظهور امراض حديثة ، جاء نتيجة لهذا التفكك ؟

ـ نعم .. ان هناك طائفة جديدة من الامراض الجسمية والاجتماعية التي ينفرد بها الانسان المعاصر ، يطلق عليها « امراض الحضارة » بمعنى الامراض الناجمة عن الحضارة الحديثة كالادمان ، وتعاطي المخدرات ، والعصابات المقترن وجودها بالارهاب الدولي ، والاضطرابات العصبية والانفعالية الحادة .. وهي ظواهر مستعصية العلاج .

● كيف تفسر النظريات السيكولوجية المعاصرة طبيعة الابداع وسلوك المبدعين ؟

ـ تنقسم هذه النظريات الى مجموعتين هما :

اولاً : مجموعة النظريات التي تفسر الابداع ، بانه حالة باثولوجية منحرفة او شاذة (فسلجية او سيكولوجية : نظريات لمبروزو ، كريستجمر ، فرويد) وهي نظريات مرفوضة في ضوء علوم الدماغ المعاصرة .

ثانياً : مجموعة النظريات السيكولوجية والفسلجية التي تعتبر الابداع حالة طبيعية (نظريات تيرمن ، كلفورد ، بافلوف) .

ومن هذه الزاوية فان ما يبدو غريباً او غير مألوف احياناً في سلوك المبدعين هو امر طبيعي (معقول ومقبول) ولا غبار عليه بحكم كون المبدعين ينظرون الى الاشياء المألوفة بطريقة غير مألوفة ، ولهم احياناً تصرفاتهم الخاصة بهم ازاء الاشخاص والظواهر الاجتماعية والطبيعية .

● هناك ترابط وثيق وآثار متبادلة بين التطور العلمي النظري والتكنولوجي وبين التطور الاجتماعي .. فأيهما الاكثر تأثيراً في مسيرة الزمن ؟

ـ هذه العلاقة الوطيدة والمتبادلة بين الافكار العلمية والافكار الاجتماعية المتطورة ، تشترك معاً في بناء الحضارة ،

اما ايهما العامل الاسبق من الناحية الزمنية في تقدم صاحبه ، اهو التطور العلمي ام الاجتماعي ، اهو الفكر الاجتماعي ام الفكر العلمي ؟

انها مسألة مختلف عليها .. وعندي ـ اذا كان لي عند كما يقول الجاحظ ـ ان التاريخ يدل على ان الآراء الاجتماعية المتطورة هي الاسبق والاهم في هذا المجال ، فقد تبين ان الفكر الاجتماعي المتنور يسبق التقدم العلمي النظري التكنولوجي ، ويؤدي في الاصل التاريخي الى تطور المجتمع في اول الامر ثم يمهد السبيل بعد ذلك وعلى اساسه الى التقدم العلمي والتكنولوجي اللاحق ، والى تطور العلاقات الاجتماعية والى الاسراع في سيرها ، كما ان الافكار الاجتماعية النيرة ـ بالنسبة لزمانها ومكانها ـ تؤدي ايضاً الى حصول الثورات الاجتماعية الكبرى في التاريخ ، كما حصل ذلك مثلاً في حالة الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ .

وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول : ان الفكر الاجتماعي المستنير ـ في هذه المرحلة التاريخية او تلك ـ هو القوة الفاعلة الدافعة للتقدم العلمي والتكنولوجي والاجتماعي على حد سواء ، ثم ان التفوق العلمي والتكنولوجي يؤدي بدوره الى تقدم اجتماعي لاحق .. وهذا كله يحصل بجهود الناس الذين يحملون تلك الافكار النيرة ويعبرون عنها ، ثم ان تبادر الافكار الاجتماعية المتطورة مع الافكار العلمية .. تتطور الحياة وتزدهر .

● لكن آراء كوبر نيكوس وغاليلو العلمية في القرن السابع عشر كانت سباقة على الافكار الاجتماعية .. وخلقت ردود فعل متباينة !

ـ هي افكار علمية كان لها تأثير ايجابي مباشر في الافكار الاجتماعية وقد ساعدت على انتشار نهضة اوربية ، وان كانت ايضا في الوقت نفسه ـ من بعض الوجوه ـ صدى للحركة الانسانية التي نشأت آنذاك في المدن الايطالية وعبرت عن نفسها في آراء دانتي ولدى روفائيل وميخائيل انجيلو وليونارد ودافنشي ، ثم انتشرت بعد ذلك في اوربا الغربية (انكلترا : شكسبير ، المانيا : غوته ، اسبانيا : دون كيشوت ، فرنسا : راباليه ، بلزاك وغيرهم) .

● اشرت في جواب سابق الى ان نظرية فرويد مرفوضة في ضوء علوم الدماغ المعاصرة .. ارجو توضيح اسباب هذا الرفض ؟

ـ فرويد يعتبر الفنان الاصيل مصاب بمرض النرجسية (والنرجسية من وجهة نظره حب الذات بشكل مفرط) .. مريض بمشاعره وعواطفه تنضب على ذاته ، ويعتبره عاشقاً لذاته .. الا ان حياة كبار الفنانين في مختلف فروع الفن والادب .. ليسوا كذلك ولنا امثلة في حياة شكسبير ، غوته ، الجاحظ ، او ادباء فرنسا في القرن الماضي ، واذا وجد بين الفنانين من يعشق نفسه بتعبير فرويد فان هذه ظاهرة اخرى لا علاقة لها بأصالته الفنية ، فهي على نسق الظواهر الجسيمة .

● إلا ان فرويد كتب ونشر افكاره في بداية هذا القرن ، في الوقت الذي لم تكن فيه علوم الدماغ متبلورة .. اليس كذلك ؟

ـ هذا صحيح ، فقد تبلورت علوم الدماغ في اعقاب الحرب العالمية الثانية واهمها : علم كهرباء الدماغ ، علم الاعصاب ، علم تركيب الخلايا الدماغية المخية ، علم وظائف الخلايا العصبية ..

● وهل تفسر هذه العلوم طبيعة الفن ؟

ـ نعم انها تفسره من ناحية اصوله السيكولوجية ، لانه راجع في الاصل الى عاملين :

١ . العامل الجسمي الذي يمده بأداته الجسمية او المادية .

٢ . العامل الاجتماعي الثقافي الذي يمده بمحتواه او مضمونه .

وفي ضوء هذه العلوم الحديثة ثبت ان في الدماغ مناطق مخية خاصة تسمى المناطق المخية الثلاثية التي تقع في القسم الخلفي الاعلى من المخ (الفصان القذاليان) ومهمتهما القيام بما يسميه علماء النفس بعملية الادراك الحسي البصري ، والتعبير عن الانطباعات الحسية البصرية باشكال حسية بصرية ايضا ، كما هي الحال في الرسم او الشعر واحياناً يعبر عنها سمعياً كما هي الحال في الموسيقى . هذا هو الاساس الجسمي للفن لكنه لا يؤدي الى انتاج فني إلا اذا تفاعل مع البيئة الفنية .

● كنت احد طلاب جون ديوي ، ثم اصبحت زميلاً له ، واصدرت كتاباً عن فلسفته التربوية ، كما ان اطروحة الدكتوراه لك كانت عنه .. فما اهمية افكار ديوي حاضراً ؟

ـ جون ديوي معروف بانه ذو افكار ليبرالية ، ولم تعد افكاره تلائم المجتمع الذي ينشد بناء مجتمع اشتراكي ..

ولديوي آراء مفيدة منها دعوته الى احترام الطالب واعتباره الهدف لا الاداة في العملية التربوية ، انه يدعو لئن يعبر الطالب عن آرائه كما يشاء .. وديوي يؤكد على اهمية المعلم في عملية التعليم وعلى دوره الفعال في التربية المتوازنة والمتكاملة بمعنى ان المعلم يزود تلاميذه بالمعلومات والانماط السلوكية السليمة ، اي ان يكون قدوة حسنة لطلابه في تصرفاته معهم ، فلا يحابي ولا يفضل بعضهم على بعض الا على اساس التفوق العلمي .. كما يؤكد على ضرورة تكوين روابط وثيقة بين المدرسة والاسرة وذلك بالتعاون معاً في تربية الاطفال بصورة خاصة ، لان للطفل مشاكل كثيرة ، لا يعرف عنها المعلم شيئاً ، ولكن الاسرة تعرفها ، كما ان للطفل من الجهة الثانية مشاكل تعليمية كثيرة لايعرفها إلا المعلم ، ومن هذه الزاوية فان التعاون الوثيق بين الجانبين ضروري وذو فوائد تربوية ايجابية كثيرة .

ويدعو ديوي الى ضرورة التزام المعلم بمهمته التزاماً تاماً ، وان لا يكون حضوره الى الصف لملء الفراغ بل لافادة التلاميذ والسير بهم خطوة خطوة من الامر الاسهل الى السهل ، ومن الصعب الى الاصعب بالنسبة لهم لا بالنسبة له .. والمعلم في نظره مسؤول عن اكتشاف قدرات التلاميذ الخاصة وتوجيهها توجيهاً سليماً وتعويدهم على ضرورة احترام العلم والمعلمين ، واعداد المعلمين اعداداً علمياً سليماً واختيار وانتقاء الاشخاص الملائمين ..

● وماذا عن افكار جان بياجيه في عملية النمو الفكري .. هل انها مازالت مؤثرة ؟

ـ بياجيه من رواد علم النفس المعاصر ، ويعتقد بياجيه بان عملية النمو الفكري تمر بمراحل متعاقبة ومتكاملة يستند بعضها الى بعض ، ولهذا فان التعامل مع الاطفال داخل المدرسة وخارجها لابد لكي يكون فعالاً وايجابياً ان يستند الى فهم دقيق لطبيعة المرحلة التي مر بها الطفل ،

والمراحل التي يحددها بياجيه هي :

١ . المرحلة الحسية الحركية في التعامل مع البيئة .

٢ . المرحلة التالية تستمر حتى العام الثاني او الثالث للطفل وهي مرحلة التعرف على المفردات .. حتى تتحول عنده الى كيانات قائمة .

٣ . مرحلة العلاقات والعمليات الذهنية التي تمتد الى نهاية السنة السادسة حيث يدرك الطفل العلاقات وارتباطاتها .

٤ . مرحلة تكوين الفكر المجرد .. ادراك علاقات مجردة ، تتسع وتأخذ طابع التعميم والتجريد .

● في الختام .. ما هي النصيحة التربوية التي تود توجيهها الى جيلنا ؟

ـ ثلثان من الفطنة ، وثلث من التغافل !